

## الاسلام

كان جو العالم في القرن السادس متلبدا بغيوم الاضطرابات والفتن فبعد ان بدأ جوستينيان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية ( ٥٢٧ - ٥٦٥ ) ظهر بعده اباطرة ضعاف لم يزيدوا الدولة إلا خبالا ، إلى أن اعتلى العرش هرقل الأول - ( ٦١٠ - ٦٤١ ) فحاول أن ينهض بها ، ولكن النوائب ما فتئت تحل بالدولة من جراء المنازعات الدينية التي شغلت أذهان الناس حتى اضطر هرقل أن يقضى أكثر وقته في محاولة حسمها

ولما قويت شوكة الفرس في عهد كسرى الثاني ( ٥٩٠ - ٦٢٨ ) كسبوا عدة انتصارات باهرة ضد الدولة البيزنطية ، فأخذ كسرى دمشق والقدس عام ٦١٤ ثم استولى على مصر عام ٦١٩ وبذلك قضى على معظم أملاك الدولة البيزنطية في الشرق

إلا أنه ما كاد كسرى يستولى على هذه الأملاك حتى ظهر هرقل وصمم على إعادة مجد الدولة فجمع قواته وحارب الفرس وهزمهم في عدة مواقع أهمها موقعة نينوى « ٦٢٧ » ولكن بينما كان الروم منتصرين في الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية في الغرب وما لبث أن خرج ابن كسرى على أبيه وقتله وعقد الصلح مع الأمبراطور ، على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه أولا وبينما كان أكبر ملوك الأرض إذ ذاك يجردان في توطيد ملكهما وتنظيم قواتهما إذ وصلت إلى كل منهما سنة ٦٢٨ م رسالة من شخص غير معروف لهما يدعوها للايمان بدين جديد ، أما الأمبراطور فلم يأبه للدعوة ، وأما كسرى فإنه غضب ومزق الرسالة ورمى بها في وجه حاملها أما الرسالة فهي رسالة الاسلام لصاحبها محمد نبي الله الجديد

كانت عظمة الأمبراطورية النارسية والبيزنطية مجرد مظهر كاذب ففسد كان يسرى في كيان هاتين المملكتين داء كهين وظل السوس ينخر في عظامهما دائما في تقويض أركانهما بسبب ما أظهرناه من عسف وجور مهلكين ، هذا إلى ما حدث من الفواجع التي كانت سلسلة متصلة الحلقات من الاضطهادات والفتن الدينية الشعواء

في عهد هذه الأحوال الخالصة ، وفي وسط هذا الجبل الشديد الوطأة ظهر الاسلام فجأة من بين تلك الصحراء التي لا يكاد يعرفها أحد ، وأخذ المسامون يمثلون دورهم على مسرح الحياة ، بعد أن كانوا شعباً نهبا مقسما ، تناوى كل قبيلة منه القبيلة الأخرى فيحتمد النزاع وتقع الحرب الطاحنة كان العرب يعبدون في أول أمرهم الأصنام والأوثان ، وكان لكل قبيلة إله خاص بها تسلك العناية به إلى أسرة بعينها منوط بها رعايته وتلبية رغباته ، وكانت هذه تقوم بحراسته وتعظيم شأنه

كما تؤدي له حقه من المراسيم الكهنونية والطقوس الدينية التي تقيمها في محرابه ، وكانت تحمص كل قبيلة على صنمها وتشيد بذكوره وتفرد به بأقدس ما تستطيع من حب لأنها ترى فيه نوطا من الماكية، وكان الكهان ينضحون عنه ، دائبون في طلب القرابين لذلك النصب ، وان كانوا في الحقيقة يطلبونها لأنفسهم ويجرون المغاسم لهم باسم الله تعالى

وكانت مكة حاضرة الثقافة في أواسط بلاد العرب ، وقد بنتها قريش في منتصف القرن الخامس الميلادي ، المحراب الذي يفخر به كل من يملكه ويقع في حوزته . ذلك هو محراب الكعبة ، وهو أقدم من المدينة نفسها بكثير ، وأن جدد وأعيد بناؤه عدة مرات ، وهو مؤلف من أربعة حوائط مبنية بحجارة لم يهد بها الصقل وقد رصف بعضها الى بعض دون أن يتخللها الملاط ، وقد غطيت بقطعة من القماش ، أما ارتفاعها فانه يزيد على ارتفاع الرجل . وأما مساحتها فتبلغ مائتي قدم وكان هبل اسم الصنم الرئيس بين أصنامهم . وكان ربا لقبيلة قريش منذ النصف الأول من القرن الثالث . وهو تمثال عتيق . جلبه من الخارج بعض الرؤساء

لم تكن الكعبة مسكا للقرشيين . بل كانت مسكاً مشاعاً لأكثر القبائل التي تربطهم بها وشائج المصلحة السياسية العامة ومن ثم كان للكعبة صبغة عالمية عندهم وقد وضعت كل قبيلة من تلك القبائل صنمها الذي تعبده في ذلك المحراب حتى زاد عدد الأرباب التي بها على الثمائة . وكان التسامح الديني سائداً وقد وصل بهم الى أعظم حدوده فقد كان بالكعبة خلاف الأصنام صورة ابراهيم الخليل وصور الملائكة وصورة العذراء مع طفلها عيسى . مع انهم كانوا لا يقدسون شيئاً كما يقدسون الحجر الأسود ويزعم الكثيرون انه أحد الرجوم الساقطة من السماء

بلغ احترام العرب للكعبة حد التقديس . وزاد اجلالهم لها فقدسوا ما جاورها من البقاع . التي جعلت عليها الكعبة مسحة القداسة . وأصبح ما يكتنفها الى ما بعد عدة فراسخ حراما لا يجوز لسكائن ان يفتك بسواه فيها أو يصطاد من حيوانها . احتراماً لها . وكان يؤم الكعبة كل عام جمهور ضخم من الناس من شتى الأنحاء . لتأدية الشعائر الدينية المقدسة فيها . أما العبادة فكانت بسيطة تنحصر في التضرع للأصنام . وطلب معونتها . ثم تقديم القرابين . وكانت تنقسم الى قسمين : — أحدهما وقف على الله — وهذا من نصيب المعوزين أبناء السبيل الذين يحلون ضيوفاً على أهل القبيلة . والآخر وقف على النصب وهو من نصيب الكهنة وخدمهم . ولكن ما لبث الفساد أن دب في هذه المراسيم ففقدت معناها الأول في القرن السادس من الميلاد وتغير جوهرها فأصبحت طائفة من الخرافات والاهوام . التي يحجبها العقل . وأخذ الكهنة يخدعون العباد . فاذا

قدمت، القرابين استأثروا بها لأنفسهم وحرموا المعوزين منها . بل ان العباد أنفسهم أخذوا يتخذون  
 لآلهة . فقد تنزل بأحدهم كارثة فينذر لأحد الاصنام أن يذبح نعمة قربانا له اذا انكشفت غمته  
 فلا يكاد يزول عنه الخطر حتى يستبدل النعمة - وهي ذات قيمة عنده - بغزال لا يكافئه ثمنه أو أكثر  
 من أن يصطاده بيده . يفعل ذلك وهو معتقد أن ذلك المعبود لا يكاد يفرق بين النعمة وانغزال  
 كانت ديانة العرب الاولى واهية لا ترتكز على أساس متين . فكان من اليسير على العرب  
 أن يقبلوا ديننا آخر فيدينوا بالمسيحية واليهودية مثلا لان انتشارهما في كثير من بلاد العرب . الا انه  
 لم يكن للمسيحية تأثير قوى في أنفسهم . فقد كان المتدينون من العرب فيها اقلية لانها تبشر بالسلم  
 وتأسر بالأعضاء والابتعاد عن الحروب . ولم يكن في استطاعة العرب أن يتعدوا عنها كما أن  
 جل الغنائم والانتفاع بها لم يكن في شيء من الدين المسيحي أو اليهودي . أما حظ اليهودية في  
 اجتذاب العرب اليها فلم يكن أكثر من حظ المسيحية . فقد رحلت جمهرة كبيرة من اليهود بعد أن  
 شردهم الامبراطور هادريان فوجدوا في بلاد العرب ملجأ لهم ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد  
 بأن الامة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارقام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية  
 من بعض الوجوه محظور على اليهود . ويعتقد اليهود من ناحية أخرى بأن اليهودية لا تلائم الا  
 شعبا مختارا . أما ان تكون ديننا عاما للناس فلا . ذلك انها ملأى بالشكايات والآمال الغامضة التي  
 تعلق بها اليهود بعد أن خرب بيت المقدس . وليس هذا مما يلائم طبيعة العرب ولولا ذلك لكان  
 في قدرة اليهودية أن تبسط نفوذها الديني على العرب

أما ديانة العرب التي ألفوها فلم تكن مهيمنة على نفوسهم ومشاعرهم بل كانت ضعيفة الاثر  
 قليلة الخطر . ولكنها كانت دين سوادهم . والحق أن أحدا لم يكن مضطرا الى العقيدة . بيد ان  
 القضاء على عبادة كان يدين بها أجدادهم وآبائهم من قبل كان يثير في نفوسهم كبرياءهم القومي  
 كانت الديانة في نظر العربي القديم أمراً لا خطر له . وآية ذلك ان شعراء الجاهلية لا تكاد  
 نراهم يذكرون ديناً أو عقيدة في أشعارهم . ولو فتشنا أناشيدهم لم نر فيها - اذا استثنينا أسماء الآلهة  
 وبعض الشعائر المختلفة - الا عبارات مقتضبة لا تكاد نعتز فيها على ذكر لعبادتهم القديمة . لقد  
 عاش العرب للحياة الحاضرة ولم يشغلوا أذهانهم بشيء من مسائل ما وراء الطبيعة . وكان مؤمنوهم  
 تابعونهم في ذلك الشعور ويسدرون عنه . ومع كل هذه الاعتبارات فقد وجدت لهذه القاعدة  
 شواذ . فان وجود جماعات شتى من متأهي العرب الذين يدينون بوحدانية الله وان اختلفت  
 وجهاتهم وتباينت نحلهم لتدين بعضهم باليهودية أو المسيحية كان أمراً له خطره عند العرب وله  
 اثره في نفوسهم . اذ كان أولئك المتألهون لا يفتأون يبتشون عقائدهم فيمن حولهم من العرب .

ومن ثم رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وآثارا لايمان عميق بوحداية الله . ورأينا منهم شعورا يقظا بالتبعية المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شر . وهذه الفئة التي ترى هذا الرأي هي طائفة الحنفاء

يجتهد العالم ولها وزن في أن يبرهن أن الحنفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت في بلاد العرب ولكن ليزنسكي يعارض ويقول أن الحنفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً . بل كان هناك أشخاص من منكري العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم في اليهودية ودخل بعض آخر في النصرانية وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان

شملت الحنفية في الواقع كثيراً من التعاليم اليهودية والنصرانية وذلك لشدة انتشار هاتين العقيدتين في بلاد العرب ، ومما يستشهد به المستشرق دوزي عن هذا الانتشار هو أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بني شمعون اليهود وأن تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الاوراثية اسرائيلية قديمة ، حتى أن ابن هشام كثيراً ما يتحدث عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة في تقديسه بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس باورشليم وعلاقة الآباء الاقدمين به وتقديس الملائكة له حتى يخيل للقاريء في أثناء قراءة كتاب السيرة لابن هشام في هذه الموضوعات أنه يقرأ صحف التلمود القصصية

كان لانتشار اليهودية تأثير عظيم فلم يقتصر على المراسيم والطقوس بل تعدى ذلك الى الاساطير التي تبودلت ركان اهمها مارسخ في نفوس اليهود ومعاصريهم من اعتقاد قوي بمجيء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء فكان لهذا الاعتقاد اثر كبير في انتشار الاسلام كما كان سبباً في ظهور النصرانية من قبل عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سبباً لظهور عدة أشخاص من اليهود في القرون القديمة الوسطى بمظهر الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لأنفسهم دعوة المسيح المنتظر

كان هذا الاعتقاد من العوامل المهمة التي أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود في أثناء أوقات الشدة والازمات أن المسيح المنتظر سيأتي ليتغلب على اعداء الشعب المختار وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة الحججة سهلة الاقناع لهؤلاء العرب العاملين ، وهي في جوهرها صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة ، ولم يكن ينقصها بلوغ هذه الغاية الا أن تكون عقيدة ثابتة مستقرة وأن تكون لها هيئة روحية ذات سيادة دينية ، وأن تكون منزلة من السماء ، أو تفهم على انها كذلك

وهذا هو العمل العظيم الذي أخذ محمد على عاتقه القيام به ليتم نقص الخلقية . ولكن هذا العمل — على ما فيه من صعوبة — قد ضوعفت مضاعفه لأن العرب لم يكونوا في حاجة الى الدين فحسب ، بل كانوا الى ذلك ينفرون بطبيعتهم من كل مظهر من مظاهر العبادة ومراسيمها كما كانوا يكرهون الفروض الغامضة ، والمعميات التي تتصل بما وراء الطبيعة ولا بد من اقناع حازم و يقين لا يتزعزع للتغلب على هذه العقبات

نشأ محمد عفيفاً ، شريف المقصد ، صادق الحديث ، عظيم الأمانة ، كان مبنضاً لعبادة الاصنام وشرب الخمر ولعب الميسر وكل ما كانت تدين به الجاهلية . بجانب هذه الصفات الاخلاقية العظيمة امتاز محمد بعبقريه فذة مكنته من أن يكون صاحب رسالة وزعيماً ومشرطاً

اصطدمت تلك الصفات العظيمة التي جبن عليها محمد بيئة فاسدة فدفعته الى التفكير في اصلاح هذه البيئة والسير بها الى مثل أعلى ينطوي على الرقي والتقدم . ومن ثم انصبته جهود محمد على اصلاح الحالة الاجتماعية في بلاد العرب . فابتدأ يدعو سراً الى دين جديد هو الاسلام . اساسه الاعتقاد بالله الذي لا شريك له رب العالمين وخالق كل ما في الوجود ، وهناك وراء هذه الحياة . حياة أخرى ويومها يوم القيامة ويوم الحساب . المنوبة على العمل الصالح والعقوبة على العمل السيء — وكل عمل اتاه الانساز، يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة . وقد جعل للمنوية والعقوبة دارين : دار المنوبة وهي الجنة ودار العقوبة وهي النار — ووراء هذا العالم العادي عالم آخر روحى ، وفيه نوعان من الأرواح : نوع خير يطيع الله مأموره . ويحب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة — ونوع شرير يستغوي النفوس الى الشر ويسمى الشياطين

أسلم على يد محمد كثير من المتصلين به وأخذ يزداد عددهم ، فام تنقض ثلاثة أعوام على ابتداء الدعوة حتى أخذ يبشر بها جهراً

نبت أهل قريش دعوته و عملوا على ابطالها بكل قواهم ، فاخذ يدعو القبائل في الأسواق ومواسم الحج الى توحيد الله . فاستجاب له بعض أهل المدينة فاسلموا ورجعوا الى قومهم ، فاسلم كثير على أيديهم وأخذ الاسلام ينتشر في المدينة ، حتى بايع بعضهم محمداً في أحد المواسم على الايمان والمدافعة عن دعوته بالسيف . ولما علمت قريش أن أهل المدينة بايعوا النبي ، وانه عزم على الخروج اليهم خافوا أن يؤايمهم عليهم ويفزروهم في دارهم فعزموا على قتله ولما علم بذلك خرج مع أبي بكر مهاجراً الى المدينة سرا . ففرح به أهلها ، وأخذها دار اقامته وبنى بها مسجده العظيم ، أحد الحرمين الشريفين . ثم تلاحق به أصحابه من مكة فسماهم المهاجرين وسمى أهل المدينة الانصار ، ثم أخذ ينشر دينه بالدعوة اليه من حماية هذه الدعوة بالسيف

وفي سنة ٦٣٢ م قبض محمد لغير وصية بالخلافة فتنازع المهاجرون والانصار في أمرها ، وبعد

خذ ورد وامتناع من بعضهم اتخذت أبو بكر خليفة ، فاخذ ينم الحروب التي ابتدأها محمد قبل وفاته  
 إلا أن بعض العرب لم تسكن تسع بقوت النبي حتى ارتدت عن الإسلام ، وبعضها منع الزكاة إلا  
 أهل المدينة ومكة والطائف ، واد الإسلام يقتلع من أصوله وينهب كأن لم يكن ، فاستفز  
 ذلك غضب أبي بكر وبعث الجيوش لمحاربة المرتدين . فكانت حروب الردة - التي أريق فيها الدماء  
 واقترب العرب من القضاء فيها ما لم يعرفه الإسلام قط ، فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه  
 ونكّلوا به لأن الردة جزاؤها القتل لاهوادة في ذلك ولا رحمة

وأخيرا تم النصر لأبي بكر فوجه هؤلاء البدو الظالمين إلى الدماء إلى مهاجمة فارس والامبراطورية  
 الرومانية وذلك ليشتغل العرب عن التفكير في خضوعهم ولا يدع لهم وقتا كافيا لذلك ، وقد رأى  
 أن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم  
 وهذا كما انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قاعة فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن  
 هنا تظاهر الكثيرون بالإسلام ووقفوا عند هذا الحد

وإذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يتنون اليهم  
 بسبب ، لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا ضايقا في القلة ، أما العرب  
 الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا حتى بعد مضي قرن من الهجرة لا يعرفون من الإسلام أكثر  
 من أنه دين أتى بتحريم الخمر

أما أولئك الذين استوطنوا مصر فإنهم ما تحدثوا عن الإسلام أو شغلوا به أنفسهم قط وكانوا  
 لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحنين

ثم لما انتهت خلافة أبو بكر وعمر وعثمان وجاءت نوبة خلافة علي ثارت عليه عواصف العن  
 والدسائس وانقسم المسلمون . طائفة معه وسميت شيعة علي وطائفة عليه وسميت شيعة بني أمية ،  
 ثم انتهى الأمر بقتله غيلة ، ثم يموت ابنه الحسن وقتل اشياح بني أمية ابنه الحسين المطالب بالخلافة  
 بعد أخيه فخرم نسله من الخلافة . فكان ذلك سببا في استفحال العداوة بين شيعة أمية وشيعة علي  
 التي انضمت لها جماعة المسلمين فاضطرت شيعة علي أن تعمل في السر لإعادة الخلافة للعلويين ، وغلا  
 أكثرهم حتى ادعى انها لم تصلح ولن تصلح لغير أهل البيت من أولاد علي ، فانكر عليهم بقية  
 المسلمين ذلك وظهر بجانب السنين والشيعة الخوارج وكانوا يرون أن الخلافة يجب أن تكون  
 باختيار حر من المسلمين . والمرجئه وهم لا يتحدثون أحد الفرق السابقة بل يقابلونها بالدين والتسامح  
 منذ أن فتح العرب أغاب الممالك المجاورة لهم دعوا أهلها إلى الدخول في الإسلام فان أسلموا  
 كانوا هم وسائر المسلمين سواء وان لم يسلموا دعواهم إلى أن يقبلوا حكم العرب ويبقوا على دينهم إن  
 شاءوا ويدفعوا الجزية فيصبح لهم ما للمسلمين وعاليهم ما عليهم . وكانوا في ذمة المسلمين يعصونهم

ويدافعون عنهم من أجل هذا كانوا يسمون أهل الذمة . وأن لم يقبلوا الاسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت عليهم الحرب وقتلوا

وكانت معاملة المسلمين أهل الذمة تختلف باختلاف العهود المعطاة لكل طائفة منهم . وباختلاف القابضين على زمام الأحكام من المسلمين . وتنحصر أوجه الاختلاف في العهود في شدة أو قلة المقاومة التي أبدتها أهل الذمة ضد المسلمين . وفي كثرة أو قلة ثقة المسلمين فيمن عاهدوه منهم وقد عاهد أقباط مصر في أول الفتح على ستة شروط مستحقة : —

١ — ألا يذكر أهل الذمة كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف

٢ — ألا يذكروا رسول الله بنكذيب له أو بازدراء

٣ — ألا يذكروا دين الاسلام بدم له أو قدح فيه

٤ — ألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح

٥ — ألا يفتنوا مسلما عن دينه أو يتعرضوا لحاله أو دمه

٦ — ألا يعينوا أهل الحرب . ولا يؤوا أعداءهم

ترك المسلمون المسيحيين وشأنهم في كنائسهم وأديرتهم وأعادوا اليهم ما أخذه الروم المملكانيون منهم وأطلقوا لهم الحرية في أن يبنوا منها ما طاب لهم ، ولم يكن للمسلمين هوى مع أحد المذهبين الذي قام النضال بينهما في العهد الروماني فخرج أن كليهما قد بقيا جنبا إلى جنب يظلهما القاتحون بدمتهم ويحمونهما جميعا بحمايتهم

أما ما كان دين التوحيد لا يحتمله من الشعائر الوثنية فقد حاربها الاسلام . غير ان العرب بعد أن صالحوا كثيرا من المسيحيين أخذ كثير من ولائهم يشتدون عليهم وعلى الخصوص لما أفضت الخلافة إلى بني أمية . فزادوا في شدة الشروط السالفة ، وأغضوا النظر عما كان يرتكبه عمالهم أحيانا من المظالم في حق النصارى ، فكانوا يسومونهم سوء العذاب ، ويزيدون قيمة الجزية المفروضة عليهم . ففي القرن الثاني للهجرة هدم علي بن سليمان بعض الكنائس فاحتج موسى بن عيسى وإلى مصر من قبل الرشيد بأن هذه الكنائس مما بنى في عهد الصحابة والتابعين ووافق الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة من أحبار الأمة بارجاعها إلى سالف عهدها وقالا بأنها من عمارة البلاد ، أما الاصنام والتماثيل فقد صدر أمر الخليفة بكسرها سنة ٧٢٣ م

ولما تولى العباسيون الحكم ، شرعوا في تنعيم الحكومة وترتيب دواوينها ، فأحسوا بافتقارهم إلى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة ، لأنهم كانوا أهل معرفة في الحساب ، والكتابة والخراج فضلا عن العلوم الأخرى ، فقربوهم اليهم وأكرمهم وسهلوا لهم أسباب المعيشة ، وأغدقوا عليهم الرواتب الضخمة ، فتقاطر أهل الذمة اليهم ، وخدموا الدولة العباسية بمقولهم وأقلامهم

بأمانة وإخلاص ، لذلك كان الخلفاء كثيراً ما يفضون عما في اليهود التي أخذت عليهم من التضييق على مظاهر عباداتهم بمنعونها من أحداث الكنائس أو الاحتفال بالأعياد . غير أن ذلك كله إنما كان منحة يجود بها على أهل الذمة كرم أخلاق بعض الخلفاء العباسيين وسماحة صدورهم ، فيقتدى عمالهم بهم أحياناً . ولكنه لم يكن ليمحو العهد المعطاة والمأخوذة في أيام الفتح الأولى . ولا ليشيء حقوقاً جديدة لأهل الذمة في دستور الحكم الإسلامي . فكان إذا تغير عليهم شاطر خليفة ولو كان متسامحاً ، عهد إلى تنفيذ تلك العهود

ظل الإسلام عظيم الشوكة في عهد الدولة الأموية والعباسية . إلا أنه بعد أيام المأمون (٨١٣ - ٨٤٣) أخذ الإحلال يتسرب إلى جميع أنحاء الدولة وأخذت تتصدع وحدة الامبراطورية العربية وحلت القوميات كل الرابطة الدينية . فنشأت الدولة السامانية ببخاري . والديلمية بفارس والعراق . وبنو حمدان بالجزيرة . والطولونية ثم الأخشدية والفاطمية والأيوبية بمصر والشام ثم ورث السلجوقيون الإمارات الشرقية ما عدا مصر والشام

كان السواد الأعظم من المصريين يعتقد المذهب السني في حين كان الشيعة أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد فلما تولى الفاطميون الحكم أخذوا يبنون الدعوة للبيت العلوي على أنهم لم يوفقوا في تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً

ألغى الفاطميون الخطبة للعباسيين وأقاموها للمعز الفاطمي ومنعوا لبس السواد شعار العباسيين وقرروا لبس الملابس البيضاء . وحرموا على الناس قراءة التسبيح في صلاة الجمعة ونهوا عن التكبير بعد الصلاة . وغيروا من صيغة الأذان فبعد أن كانت ( الله أكبر الله أكبر ) أصبحت ( حتى على خير العمل ) وهي من العبارات المألوفة عند الشيعة . وعلى العموم غير الشيعة أكثر العادات التي كانت مألوفاً عند السنيين

استعان الفاطميون في نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدعونهم في جيوشهم . لبث الدعاة باسمهم . وبلغ عدد هؤلاء الدعاة اثني عشر تقيماً . وعينوا لهم رئيساً هو داعي الدعاة . وكان له نواب ينوبون عنه في سائر البلاد المصرية . ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر . ويتقدمون إليه معاضراتهم عن أصول المذهب الشيعي . فيقدمها الداعي بنفسه قبل القائها إلى الخليقة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضائه . ثم يردها الداعي إليهم

ظلت الدولة الفاطمية تعمل من ناحية أخرى على تفويض ملك الدولة العباسية . فعمدت إلى صبغ هذه المحاربة السياسية بصبغة دينية . وتحقيقاً لهذه الغاية أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة يعلم فيها الناس الأحاد

حمل الحاكم إلى دار الحكمة الكتب من خزائن القصور ووقف لها أماكن ينفق عليها من

ربعها وأقام بها القراء والمنجمين وأصحاب النحو والافقة والاطباء وأجرى لهم الأرزاق وأباح لسائر الناس الوصول إليها على اختلاف طبقاتهم من معبي المطالعة ليقرأوا وينسخوا ما شاءوا وقد أباح المناظرة بين المترددين إليها

كان الطالب يتلقى في دار الحكمة بعض تعاليم الإسماعيلية وهي طائفة من فرقة الباطنية التي أسسها عبد الله بن ميمون القداح وتقول بأن تعاليم الأديان باطلة . وأن الفروض التي أدت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة أريد بهما إخضاع الناس . ويتلقى أيضا بعض تعاليم المانوية التي تهدم وحدانية الله . وبعض تعاليم أرسطو وأفلاطون وغيرهم التي تقول بأن تعاليم جميع الأديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعلم . ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رجال العقل السياسيون الذين ينشئون الحكومات ويؤسسون النظم المدنية للناس . والغرض الأخير لهذه التعاليم إحلال الفلسفة محل الدين ورفض الأديان واعتبارها حديث خرافة

ولما انتهت الدولة الفاطمية سنة ١١٧١ م ماتت في نهايتها هذه النزعة الإلحادية لأن دار الحكمة لم تعيش بعد هذه الدولة

ولما تغيرت الحالة السياسية في مصر وأصبح الحكم للأيوبيين ، عادت مصر سنوية يخضب خطبائها في المساجد للخلفاء العباسيين ، وتغير كثير من النظم والعادات التي كانت متبعة أيام الفاطميين ، وأسست المدارس لكي تعنى بتدريس المذهب السني . ظل الأيوبيون يحاربون المذهب الشيعي حتى وقعت الحروب الصليبية ، فقاوموها أشد مقاومة وكان الانتصار حليف المسلمين فصدوا بذلك المسيحيين عن التغلغل في أراضي المسلمين ولولا هذا العمل لتغيرت خريطة توزيع الدين الإسلامي في الشرق تغيرا عظيما

لم تدم الوحدة الدينية التي كونها الأيوبيون في مقاومتهم للصليبيين ، وذلك لأن المماليك الذين كان يستخدمهم الفاطميون ثم أخذت الدولة الأيوبية في استكثارهم كانوا سببا في تفكيك هذه الوحدة

كان المماليك من بيئات مختلفة يدينون بعقائد متباينة . ورغم تعاصم قواعد الدين الإسلامي في طفولتهم إلا أنهم كانوا في كبرهم ينتمون إليه ظاهرا . فضعف شأن الدين وكثر الظلم والاستبداد وظل الحال كذلك حتى تولى الحكم بيبرس ( ١٢٦٠ م ) فأراد أن يوطد مركزه ضد أعدائه بإيجاد سلطة دينية تناصره في الحكم وتؤازره في القضاء على نفوذ الشيعة الذي كان لا يزال باقيا في مصر فسكان سبيله إلى ذلك إعادة الخلافة العباسية وجعل مقرها مصر

بايع الشعب أحد سلاطين العباسيين بالخلافة ودعى المستنصر بالله ثم أراد بيبرس أن يعيد إليه خلافته العباسية في بغداد . إلا أن بعض الأمراء أسر إليه أن تكوين خلافة عربية قوية في

بعداد خطر دائم على استقلال مصر فدير بديرس مؤامرة قتل فيها الخليفة . وولى بعده الخليفة أحد سلاسل العباسيين أيضا . الا انه لم يملك من السلطة شيئا ولم يجعل له أي نفوذ أو دخل في شئون الدولة . وجعله شخصاً عاديا في الحاشية مراقباً سجيناً لا يباح القلعة الا بأذن السلطان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الخليفة وليس له من الخلافة الا اسمها فكان بمثابة متمم للحاشية في الحفلات الرسمية المهمة . وأهم أعماله الاعتراف بالسلطان الجديد ومنحه البركة بصفتة أ كبر رئيس ديني اسلامي . وفي سنة ١٤١١ م ثار المماليك بزعامة الخليفة على السلطان فرج بن برقوق وقتلوه لأنه اعتبر خارجا على الدين الاسلامي لضربه سكة للعملة عليها صورته . ثم اجتمع العلماء والمشايخ وزعماء المماليك رطلبوا الى الخليفة العباسي أن يرتقى العرش ليصون الشريعة والدين من تلاعب المارقين فتولى العرش سنة ( ١٤١٢ م ) ولقب الخليفة الامام المستعين بالله

لم يستكن المماليك لمودة النفوذ الزمني الى الخلافة . فسرعان ما أصبح الخليفة سجينهم . وتولى الحكم المؤيد شيخ . ومنذ ذلك الوقت حرم الخليفة ثانية من جميع امتيازاته وأصبح عمله الوحيد أن يتبع الجيش في جميع غزواته ليمنحه البركة

عندما احتك المسلمون بالهنود والفرس والاغريق نزعت أفكارهم الى الصوفية . وتسربت هذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية . وانتشرت الافكار الصوفية بين المسلمين فنشأت فرق اسلامية عديدة فايقها التوفيق بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفية

ويرجع فضل اقتباس المسلمين للأفكار الصوفية الى ثلاثة مدارس : جنديسابور وهوران والاسكندرية — أما الأولى فقد أسسها كسرى أنو شروان ملك الفرس ( ٥٣١ — ٥٧٨ م ) وكان من المتأثرين بتعاليم اليونان . كان يدرس بها كثير من الفلاسفة الاغريق الذين اضطهدهم جوستينيان وكان أغلبهم من الآخذين بالتعاليم الافلاطونية الحديثة . فكان لذلك تأثير عظيم على الافكار الصوفية التي ظهرت في فارس فيما بعد . ثم وصلت هذه الافكار الى متصوفة المسلمين عن طريق الترجمة والنقل . ومدرسة حوران وهي التي أسسها السريانيون كانت مركزا آخر لهذه الثقافة . ولو أن تأثيرها جاء متأخرا . وكانت تترجم بها الكتب اليونانية الى السريانية . ومن هذه ترجمت علوم اليونان الى اللغة العربية . كان الحورانيون يدينون بدين مزيج من الديانة البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة لذلك أطلق المسيحيون على حوران « مدينة الوثنيين » وأطلق عليها المسلمون « مدينة الصابئة »

أما الاسكندرية فعاصمة مصر اليونانية وجها ظهر مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين أو الافلاطونية الحديثة . ومؤسسه أمنيوس سكاس وهو أول المسلمين

الاسكندرانيين . أو الافلاطونية الحديثة ومؤسسه أننبوس سكاوس وهو أزل المعلمين الاسكندرانيين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم افلاطون وأرسطو وجاء من بعده تلميذه أفلاطون « ٣٩٥ — ٢٦٩ » فنظم هذا المذهب . وكان أكبر مؤيديه والمدافعين عنه . بل عن مؤسسه . وقد امتاز بروحانيته ونقده للمذهب المادى

وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية في العهد الاموى والعصر العباسى فنقل النساطرة والبعاقبة كثيرا من كتب اليونان الى اللغة السريانية . ثم نقلوها الى العربية وشرحوها عظم شأن التصوف فى القرن الثانى للهجرة ولم يكن للمتصوفة فى ذلك الوقت رابطة منظمة تجمعهم أو مكان يزاولون فيه طقوسهم . وانما كانوا يسرون من مكان الى آخر فيتلون الذكر ويرتلون القرآن . همهم الانصراف عن الدنيا تقربا من الله تعالى وكانوا يعلقون أهمية كبرى على بعض تعاليم الدين الاسلامى ويتركون الاخرى

الا انه كانت منهم جماعة اتفقت مبادئها وتلاءمت أخلاقها فكانت تعيش فى مكان واحد وكان منهم متزوجون وفضل أغلبهم العزوبة لان العائلة تاهى الرجل عن التقشف والعبادة . ولكن الهيئة الاجتماعية الاسلامية التى أمرت بالاهتمام بالعائلة كالاهتمام بالايمان والعبادة لم تجز هذا الرأي . على انه نما واشتد أمره فيما بعد سنة ٢٠٠ هـ . فلم يكد القرن الخامس الهجرى يبتدىء حتى دخلت الخانقاة الاسلام . وفيها التأم الجمع . تحت تصرف المريدين وكان ذلك الاصل لحركة الدراويش التى سيطرت على العالم الاسلامى واشتد أثرها منذ القرن الحادى عشر . وحلت الدروشة وهى عبارة عن أساليب خاصة فى الذكر والعبادة محل الصوفية التى هى بمثابة نزعة علمية . كانت غاية الدراويش الاتصال بالله بواسطة طرق عدة ومقامات حجة منتزعة مادتها من الحديث والقرآن وأقوال الاولياء . وأكثر هذه الطرق متشابهة من حيث الجوهر . ولو اختلفت وجهات النظر باختلاف المؤلف أو المجتهد

قامت الفرق أثر هذه الحركة وكانت أولها المولوية التى تنسب الى جلال الدين الرومى ثم تلتها الرفاعية وغيرها

تعددت الفرق واختلف بعضها عن بعض اختلافا كبيرا وصار الناس لا يفرقون بين الشموذة والدين والعلم تخالف الدراويش وخاصة عامتهم سنن الزهد والتصوف وخرجوا الى الاعمال جماعات لا رابط يجمعها . ويقال ان الطريقة القديرية فى مصر تميزت بصيد السمك . وان رجالها يحملون فى الاعمال والمواضع أعلاما من الشبك تختلفه الألوان والاشكال واتخذ المولوية لبس التنورة مميزة خاصة بهم